

کتابک

د. محمد حسین الذهبی

علم التفسیر



دارالمعارف

٩

كتائب

رئيس التحرير: أنيس منصور

د. محمد حسين الذهبي

علم النفس



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم البحث

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا .
والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد عبد الله ورسوله الذى أكرمته ربه
بكتاب لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم
حميد . وبعد :

فهذا مختصر موجز للتعريف بعلم التفسير . بينت فيه حقيقة علم
التفسير ومراحله التى مر بها . واتجاهاته التى اتجه إليها . والعوامل التى
اثرت فيه وخرجت به عن مساره السوى إلى مسار تشعبت سبله . فكان -
إلى حوار المقبول منه - ما هو مرفوض لا يقره عقل ولا يقبله شرع .
ووضعت المنهج السليم لمن يريد أن يفسر كتاب الله حتى لا تزيغ به
الآهواء . وذكرت شرائط التفسير التى لا بد من توافرها فى كل من
يتعرض لتفسير كتاب الله حتى لا يزل ولا يضل . ونهت إلى بعض كتب
التفسير وما فيها من زيف حتى لا يغتر بها غافل .

والله أرجو أن يوفقنا لخدمة كتابه وأن يلهمنا الرشاد والسداد فى أمرنا
كله . والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

دكتور محمد حسين الذهبي

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

علم التفسير

المفهوم اللغوى لكلمة : التفسير :

يطلق لفظ (التفسير) فى اللغة العربية ويراد منه : الإيضاح والتبيين ، وقد ورد اللفظ بهذا المعنى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : «وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا»^(١) أى وأحسن بيانا وتفصيلا .

والكلمة فى أصل اشتقاقها مأخوذة من (الفَسْر) بمعنى الإبانة والكشف :

قال فى القاموس : الفَسْر : الإبانة وكشف المغطى .

وقال فى لسان العرب : الفَسْر : البيان . . . والتفسير مثله . . . ثم قال : الفَسْر : كشف المغطى . والتفسير : كشف المراد من اللفظ المشكل .

ومن هذا الذى تقدم يتبين لنا أن التفسير يستعمل -- لغة - فى الكشف الحسى ؛ كما يستعمل فى الكشف عن المعانى ، واستعماله فى الأخير أكثر من استعماله فى الأول .

(١) سورة الفرقان الآية ٣٣

المفهوم الاصطلاحي لكلمة التفسير :

وكلمة التفسير تطلق في اصطلاح علماء التفسير والمعنيين به - على العلم الذى يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ ، وبيان معانيه . واستخراج أحكامه وحكمه ... هكذا عرفه الزركشى كما نقله عنه صاحب الإتيقان (١) .

وهناك تعاريف أخرى للتفسير نقلها صاحب الإتيقان هو وغيره عن بعض علماء التفسير . وكلها تدور على أن التفسير : علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ؛ فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد .

التأويل والفرق بينه وبين التفسير :

وكان لزاما على علماء التفسير والمعنيين به وبعلومه أن يعرضوا لمعنى كلمة (التأويل) كما عرضوا لمعنى كلمة (التفسير) ؛ لأن كلا اللفظين ورد على لسان المفسرين وفي كتبهم .

وكان لزاما عليهم أيضا - أن يفرقوا بين اللفظين في مصطلحهم إن كان هناك فرق . أو أن يبينوا لنا ترادفهما . إن كانا مترادفين يراد بهما شيء واحد .

ونوضح هذه القضية في كثير من الإيجاز فنقول :

(١) الإتيقان ج ٢ ص ١٧٤ ط : الحلبي سنة ١٩٣٥

المفهوم اللغوي لكلمة التأويل :

التأويل - في اللغة - مأخوذ من الأول وهو الرجوع : قال في القاموس : آل إليه أولاً ومآلاً : رجع ، وعنه : ارتد ... ثم قال : وأول الكلام وتأوله : دبره . وقدره وفسره .

المفهوم الاصطلاحي لكلمة التأويل :

وكلمة التأويل تطلق عند علماء السلف ويراد بها : تفسير الكلام وبيان معناه سواء أكان موافقا للظاهر أم مخالفا له . فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين . وهذا هو ما يعنيه ابن جرير الطبري بقوله في تفسيره : « القول في تأويل قوله تعالى .. كذا وكذا » . وهو ما يعنيه - أيضا - بقوله : « اختلف أهل التأويل في هذه الآية » .

وتطلق كلمة التأويل عند علماء السلف - أيضا - على نفس المراد بالكلام : فإن كان الكلام طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب . وإن كان خبرا كان تأويله نفس الشيء المخبر به .

وعلى هذا فالتأويل والتفسير أمران متباينان .

وتطلق كلمة التأويل عند المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين على صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقتزن به . وعلى هذا فالتفسير أعم من التأويل ... هذا وقد نقل صاحب

الإتقان (١) عن بعض العلماء : « أن التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية ؛ وعلى هذا فهما متباينان .

وهذا الرأي الأخير نقله الزركشى في كتابه البرهان (٢) عن أبي نصر القشيري حيث قال ما نصه :

« قال أبو نصر القشيري : ويعتبر في التفسير الاتباع والسمع ؛ وإنما الاستنباط ما يتعلق بالتأويل » .

وبعد : فالذى نرتضيه من بين ما ذكرناه وما لم نذكره في هذه القضية هو : أن التفسير ما كان راجعا إلى الرواية . والتأويل ما كان راجعا إلى الدراية ؛ وذلك لأن التفسير معناه : الكشف والبيان . والكشف عن مراد الله تعالى لا يكون إلا بالنقل الصحيح عن رسول الله ﷺ . أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي . وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع . وخالطوا رسول الله ﷺ ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم .

وأما التأويل فلحوظ فيه ترجيح أحد احتمالات اللفظ بالدليل ، والترجيح يعتمد على الاجتهاد ، وَيَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِمَعْرِفَةِ مَفْرَدَاتِ الْأَلْفَاظِ وَمُدُلُولَاتِهَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ . واستعمالها بحسب السياق ، ومعرفة الأساليب العربية ، واستنباط المعاني من كل ذلك .

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) الإتقان ج ٢ ص ٢٥٠ ط : عيسى الحلبي سنة ١٩٥٧ .

أهمية علم التفسير ، ومبلغ عناية المسلمين به

وعلم التفسير يعتبر - بحق - أرفع العلوم الإسلامية قدرا . وأعلىها شأنًا . دونه كل علم من العلوم الإسلامية على اختلاف أنواعها وتنوع مقاصدها . وتلك حقيقة برهانها قائم . لا ينكره إلا من ينكر ضوء الشمس .

فموضوع علم التفسير : كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد . وكل العلوم في شرف خدمته . وما من علم منها إلا وهو وسيلة من وسائل توضيح معانيه . وتجلية مقاصده ومراميهِ : فعلوم البلاغة : وسيلة إلى الكشف عن بلاغة القرآن الكريم وسر إعجازه . وعلم الفقه وأصوله : وسيلة إلى الكشف عن تشريعاته وأحكامه ؛ وعلم النحو والصرف : كلاهما وسيلة إلى ضبط ألفاظه وفهم معانيه ؛ وعلم الكلام والجدل : وسيلة إلى تجلية عقائده ومساندتها بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ؛ والعلوم الكونية والطبيعية : وسيلة إلى الكشف عما أودعه الله كتابه واسترعى إليه أنظار عباده من دلائل قدرته وأسرار ملكوته . وعجائب مخلوقاته التي بثها في الأنفس والآفاق وهكذا بقية العلوم - مهما كثرت وعلا شأنها - كلها مسخرة لخدمة القرآن الكريم . ولا عجب . فهو كتاب رب العالمين « كتاب أحكمت آياته ثم

فصلت من لدن حكيم خبير» (١) .

ومن هنا كانت عناية المسلمين بتفسير القرآن الكريم والكشف عن معانيه عناية دونها كل عناية بذلت بالنسبة لأي من العلوم الإسلامية ، بل غير الإسلامية ، ولم تكن هذه العناية البالغة بنت الأمس القريب أو البعيد . بل هي بنت الأمس الموهل في البعد ؛ لأنها ولدت منذ الساعة الأولى من نزول القرآن الكريم ؛ فقد كان القرآن في أول أمره ينزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ يقرأ جبريل عليه السلام ، فيبادر النبي ﷺ إلى أخذه ، ويسابق الملك في قراءته ؛ فأمره الله - عز وجل - إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له . وتكفل الله له : أن يجمعه في صدره . وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يفسره له ويبيّنه . وبوضحه : وفي ذلك يقول الله تعالى موجها الخطاب لنبية عليه الصلاة والسلام : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » (القيامة : ١٦ - ١٩) . ضمن له الحفظ . وضمن له قراءته كما قرأه جبريل ، ثم ضمن له بيان معانيه .

ولم يقف أمر بيان معاني القرآن الكريم عند رسول الله ﷺ وحده ، بل تعداه - من أول الأمر أيضا - إلى صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ؛ فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يبين للناس ما نزل إليه ، فقال عز

(١) سورة هود - الآية ١ .

من قائل : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (١) .

ولم يقف القرآن عند هذا الحد . بل تعداه إلى دعوة الأمة إلى التدبر في آياته والبحث عن معانيه بقوله سبحانه : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » (٢) . وقوله بأسلوب التبكيت لمن أعرضوا عن ذكره : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » (٣) . ولقد حرص أصحاب رسول الله ﷺ على أن يعرفوا معاني ما ي حفظون من القرآن أولاً فأولاً : روى ابن جرير الطبري بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » (٤) .

وروى ابن جرير أيضا بسنده إلى أبي عبد الرحمن السلمي قال : « حدثنا الذين كانوا يقرئونا : أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ . فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلّفوها حتى يعلموا ما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا » (٥) .

(١) سورة النحل الآية ٤٤

(٢) سورة ص - الآية - ٢٩

(٣) سورة محمد الآية ٢٤

(٤) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤٦ .

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٧

مراحل التفسير وتدرجه فيها

بدأت عناية المسلمين بتفسير القرآن الكريم والكشف عن معانيه وأسراره من أول نزوله على رسول الله ﷺ - كما بينا آنفاً - واستمرت هذه العناية إلى يومنا هذا . وستبقى مستمرة ما دام القرآن الكريم . وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

غير أن معالجة المسلمين للكشف عن معاني القرآن الكريم لم تجر على نمط واحد . ولم تكن في مستوى واحد من الفهم والإدراك . وتلك طبيعة الحياة في كل كائن حي (حياة حسية أو معنوية) . ومن هنا لم يكن بدعاً أن نرى تفسير القرآن يمر بمراحل مختلفة يتدرج فيها تدرج الكائن الحي : يبدأ شيئاً صغيراً . ثم ينمو شيئاً فشيئاً حتى يبلغ أشده . ويصل إلى أوج الكمال .

غير أن تفسير القرآن الكريم بدأ واستمر يزكو عوده . وسيستمر يزكو ويزكو دون أن ينتهى إلى غاية . أو يقف عند نهاية . . ولا عجب : فالقرآن كلام رب العالمين الذى لا يخلق على كثرة الرد . ولا تنقضى عجائبه .

وكان طبعياً أن يبدأ تفسير القرآن الكريم على صورة ضيقة : لأن القوم - وقت نزوله - كانوا عرباً خلصاً . يعرفون اللسان العربى . ولا يخفى

عليهم من معانيه إلا التزر اليسير الذى لا يلبث أن ينجلي لهم برجعهم فيه إلى رسول الله ﷺ .

... ثم تتسع دائرة التفسير شيئاً فشيئاً كلما ازداد الغموض على الناس . ضرورة بعدهم عن معين العربية التى نزل بها القرآن الكريم . ونستطيع أن نحصر هذا التدرج في فهم القرآن الكريم في ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : في عصر النبي ﷺ وصحابته .

المرحلة الثانية : في عصر التابعين .

المرحلة الثالثة : ما بعد عصر التابعين . أو منذ بدأ التدوين للعلوم إلى يومنا هذا .

ونفرد كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث بالحديث عن مسار التفسير فيها . وتدرجه . واتجاهاته . وألوانه : فنقول :

* * *

المرحلة الأولى للتفسير

أو التفسير في عصر النبي ﷺ وأصحابه

جرت سنة الله مع رسله عليهم السلام أن يرسل كلاً منهم بلسان قومه حتى يستطيعوا الأخذ منه ، والفهم عنه . مصداق ذلك قوله تعالى :

«وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» (١).
وعلى هذه السنة نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ . قال عز
من قائل : «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (٢) وقال : «وَأَنَّهُ
لِتَنْزِيلٍ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ
الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» (٣) .

وكان من الضروري - وقد نزل القرآن بلغة العرب على رسول هو أعلم
الناس بلغة العرب . ثم هو بعد قد ضمس الله له بيان القرآن بقوله :
(... فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) (٤) - كان
ضروريا مع هذا كله أن يفهم رسول الله ﷺ القرآن الكريم جملة
وتفصيلا . بحيث لا يغيب عنه من معانيه وأسراره وحكمه وأحكامه
شاردة ولا واردة .

وكان من الضروري - أيضا - وقد عاصر الصحابة نزول القرآن
الكريم . وعرفوا أسباب نزوله أن يفهموا القرآن الكريم في جملته .
أما فهمه تفصيلا . ومعرفة دقائقه وأسراره . بحيث لا تخفى عليهم منه
خافية . فذلك أمر لا نقول به . ولم يقل به أحد ممن يعتد برأيه . لأن

(١) سورة إبراهيم الآية ٤

(٢) سورة يوسف الآية ٢

(٣) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ - ١٩٥

(٤) سورة القيامة الآيات ١٨ - ١٩ .

الأمثلة والشواهد قائمة وصرخة في أنه خفى على بعض الصحابة . بل على
أرسخهم في العلم قداما بعض معاني القرآن الكريم . كما سنبين ذلك فيما
بعد إن شاء الله .

ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا إذا خفى على
أحدهم بعض آيات القرآن الكريم لا يقبل من هذا شأنه منهم أن يقيم
على جهل بها . بل كان يسارع إلى رسول الله ﷺ ليستوضحه معناها .
وربما سارع إلى من هو أفقه منه من الصحابة . فيجد عنده ما يريد من
علم ومعرفة .

ولقد نجد خلافا بين علماء المسلمين : فمنهم من ذهب إلى أن النبي
ﷺ بين لأصحابه كل معاني القرآن الكريم . ومنهم من ذهب إلى أنه
- عليه الصلاة والسلام - لم يبين لهم إلا القليل . ولا متسع لسرد كل من
القولين . ولا أدلة كل من الفريقين . وأمامنا عبارة لابس عباس يرويها
عنه ابن جرير الطبري في تفسيره (١) ونصها : «التفسير على أربعة
أوجه :

١ - وجه تعرفه العرب من كلامها .

٢ - وتفسير لا يعذر أحد بجهالته .

٣ - وتفسير تعرفه العلماء .

٤ - وتفسير لا يعلمه إلا الله .

(١) ج ١ ص ٥٢ ط : الأميرية .

ومن خلال هذا النص لترجمان القرآن ابن عباس - نستطيع أن نخرج بحقيقة تقضى على هذا الخلاف الذى أمسكنا عن تفصيله ، هذه الحقيقة هى :

أن رسول الله ﷺ لم يفسر لهم القسم الأول . وهو : ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب لأن القرآن نزل بلغتهم .

ولم يفسر لهم القسم الثانى ، وهو : ما تتبادر الأفهام إلى معرفته ، وهو الذى لا يعذر أحد بجهله ؛ لأنه لا يخفى على أحد .

ولم يفسر لهم القسم الرابع وهو ما استأثر الله بعلمه : كوقت قيام الساعة . وحقيقة الروح . . وغير ذلك من كل الغيوب التى لم يُطْلَع الله عليها نبيه .

وإنما فسر لهم رسول الله ﷺ بعض المغيبات التى أخفاها الله عنهم وأطلع عليها نبيه وأمره ببيانها لهم .

وفسر لهم - أيضاً - كثيراً مما يندرج تحت القسم الثالث ، وهو ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم : كبيان المحمل ، وتخصيص العام ، وتقبيد المطلق ، وغير ذلك من كل ما خفى معناه ، والتبس المراد به . وإذن فبعض ما يروى عن الصحابة فى التفسير مأخوذ عن رسول الله ﷺ . وبعضه - وهو ما لم يتيسر لهم أخذه عنه وكان بحاجة إلى نظر واجتهاد - قالوا فيه برأيهم . وأعملوا فيه نظرهم واجتهادهم مستعينين فى ذلك بما يعرفونه من أوضاع اللغة وأسرارها ، وعادات العرب وتقاليدها ،

والحوادث التى نزلت بعض الآيات بشأنها . وأحوال أهل الكتاب الذين كانوا فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن الكريم . . . ثم بقوة الفهم وسعة الإدراك - كما قال على رضى الله عنه - لما سئل : هل عندكم شئ من الوحي إلا ما فى كتاب الله ؟ - قال : « لا والذى فلق الحبة . وبرأ النسمة . ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً فى القرآن . . . » (١)

ومن البدهى أن قول على رضى الله عنه (ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً فى القرآن) يساعدنا فى تثبيت ما قلنا قبل : من أن الصحابة متفاوتون فى فهم القرآن الكريم . وقد يخفى عليهم الكثير من معانيه . ولو أننا رجعنا إلى عصر الصحابة لوجدنا أن الكثير منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالى للآية : ومما يشهد لهذا ما أخرجه أبو عبيدة فى الفضائل عن أنس رضى الله عنه : أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر « وفاكهة وأبا » فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها . فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : « إن هذا هو التكلف يا عمر » (٢)

وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتى أعرابيان يتخاصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها : يقول : أنا ابتدأتها . ولا ضير فى هذا . لأن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم . ولم يدع أحد أن كل فرد من أمة

(١) صحيح البخارى فى باب الجهاد ج ٤ ص ٦٩ ط . الخيرية ١٣٢٠ هـ

(٢) الانتقان ج ٢ ص ١١٣ .

يعرف جميع ألفاظ لغتها .

ولو أننا رجعنا أيضا إلى عصر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين - لوجدنا أن منهم من كان يفهم الآية على غير وجهها : يشهد لذلك ما رواه البخاري من أن عدى بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » (١) وبلغ من أمره أن أخذ عقلا أبيض وعقلا أسود . فممن - بعض الليل نظر إليهما فلم يستبهما . فمما أصبح أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم . فعرض بقله فهسه . وأفهمه المراد (٢) .

ولو أننا رجعنا ثالثا إلى عصر الصحابة رضي الله عنهم لوحدنا من شيوخهم من لا يدركون إشارات القرآن الكريم على حين يفهمها من هو في أول سلم الشباب : يشهد لذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال : « كان عمر يدحني مع أنسباج بدر فدخل بعضهم وجد في نفسه وقال : لم يدحل هذا معنا وإن لنا أساء منه » فقال عمر : إنه من أعلسكم . فدعاهم ذات يوم فدحني معهم . فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريه . فقال : ما تقولون في قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح » . « ؟ فقال بعضهم : أمرا أن حصد الله واستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم ولم يقل شيئا . فقال

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧

(٢) الحديث عن البخاري في باب التفسير .

لى : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له : قال إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلت (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول »

٤ مصادر التفسير في هذه المرحلة

أما مصادر التفسير في هذه المرحلة :

فبالنسبة إلى رسول الله ﷺ : لا مصدر له إلا الله عز وجل : لأنه : إما أن يأخذ عن الله مباشرة . وإما أن يأخذ عن القرآن الكريم نفسه . وإما أن يجتهد رأيه . وهو في كل ذلك أخذ عن الله سبحانه : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ » (١) . وسنذكر - بعد قليل - بعض ما أثر عن الرسول ﷺ في التفسير . وأما بالنسبة إلى الصحابة - رضي الله عنهم وأرضاهم - فمصادر التفسير أربعة :

المصدر الأول - القرآن الكريم :

وذلك أن القرآن يشتمل على الإيجاز والإطناب . وعلى الإجمال والتبيين . وعلى الإطلاق والتقييد . وعلى العموم والخصوص . وما أوجز

(١) سورة النجم - الآيتان ٣ - ٤

في مكان قد يذكر مفصلاً في مكان آخر . وما أجمل في موضع قد يبين في موضع آخر . وما جاء مطلقاً في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى . وما كان عاماً في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى . من أجل هذا كان لا بد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً ، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد . ويقابل الآيات بعضها ببعض ؛ ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً . وبما جاء مبيناً على فهم ما جاء مجملًا ؛ وليحمل المطلق على المقيد . والعام على الخاص ؛ وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن . وفهم مراد الله بما جاء عن الله ، وهذا مصدر لا يجوز لأحد - مهما كان - أن يعرض عنه . ويتعداه إلى غيره من المصادر .

ومن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن :

- ١ - قوله تعالى : « فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ . . . » (١) : فسر (الكلمات) قوله تعالى في آية أخرى : « قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (٢).
- ٢ - وقوله تعالى : « . . . ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً » (٣) : فسر الاسم الموصول بأهل الكتاب في قوله « أَلَمْ تَرَ إِلَى

(١) سورة البقرة - الآية ٣٧ .

(٢) سورة الأعراف - ٢٣ .

(٣) سورة النساء - الآية ٢٧ .

الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَفْضِلُوا السَّبِيلَ » (١)

والأمثلة كثيرة لهذا التفسير .

المصدر الثاني - النبي ﷺ :

وذلك يكون بالرجوع إليه في حياته . وبالرجوع إلى سنته بعد وفاته . وذلك لأن وظيفة الرسول - ﷺ - البيان كما أخبر الله عنه بذلك في كتابه العزيز بقوله : « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (٢) . وكما نبه على ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود بسنده عنه أنه قال « . . . ألا وإنني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه . وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . . . » الحديث .

ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة :

- ١ - ما أخرجه الترمذي عن علي قال : سألت رسول الله - ﷺ -
- عن (يوم الحج الأكبر) (٣) فقال : يوم النحر .

(١) سورة النساء - الآية ٤٤ .

(٢) سورة النحل - الآية ٤٤ .

(٣) سورة التوبة - الآية ٣ .

٢ - ما أخرجه مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ (١) » ألا وإن القوة الرمي . والأمثلة كثيرة لهذا النوع من التفسير . وفي كتب السنة منها الكثير .

غير أن الوضاع قد أدخلوا على هذا النوع من التفسير كثيراً من الأكاذيب والأباطيل . ولكن علماء الحديث ونقاده قد نبهوا إلى زيف هذه الروايات وفسادها .

المصدر الثالث - الاجتهاد وقوة الاستنباط :

وذلك إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله تعالى . ولم يتيسر لهم أخذه عن النبي ﷺ - مباشرة أو بالوساطة - فحينئذ يكون الاجتهاد واجباً على من تتوافر فيه شروط الاجتهاد . وهذا - بالضرورة - إنما يكون فيما يحتاج إلى نظر واجتهاد . أما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة فكانوا لا يحتاجون في فهمه إلى إعمال النظر . ضرورة أنهم عرب خلص يعرفون كلام العرب ومناحيهم في القول . ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك في الشعر الجاهلي الذي هو ديوان العرب . كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

هذا ، وأدوات الاجتهاد في التفسير عند الصحابة تنحصر فيما يلي :

(١) سورة الأنفال - الآية ٦٠ .

١ - معرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها . لأنها تعين على فهم الآيات التي لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب .

٢ - معرفة عادات العرب . لأنها تعين على فهم الكثير من الآيات التي لها صلة بعاداتهم .

٣ - معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن ؛ لأنها تعين على فهم الآيات التي فيها الإشارة إلى أعمالهم والرد عليهم .

٤ - معرفة أسباب النزول وما أحاط بالقرآن من ظروف وملايسات . وذلك لأنها تعين على فهم كثير من الآيات القرآنية . وهذا قال الواحدى : « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها (١) » .

٥ - قوة الفهم وسعة الإدراك . وهذا فضل الله يعطيه من يشاء من عباده - وذلك لأن كثيراً من آيات القرآن يدق معناه . ويخفى المراد منه . ولا يظهر إلا لمن أوتى حظاً من الفهم ونور البصيرة . ولقد أوتى ابن عباس حظاً وافراً من ذلك . وهذا بركة دعاء رسول الله ﷺ له بقوله : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل (٢) » .

(١) ميج الفرق في علوم القرآن - ج ١ - ص ٣٦

(٢) انظر ما كتبه ابن حجر عن روايات هذا الحديث وطرقها في فتح الباري ج ١ ص

١٢٤ . ١٢٥ - كتاب العلم - باب من أنسى ﷺ (بأنهم علمه لكتب) .

المصدر الرابع - أهل الكتاب من اليهود والنصارى :

وذلك أن القرآن الكريم يتفق مع التوراة في بعض المسائل . وبالأخص في قصص الأنبياء وما يتعلق بالأمم الغابرة .

وكذلك يشتمل القرآن على موضوعات وردت في الإنجيل كقصة ميلاد عيسى عليه السلام ومعجراته . غير أن القرآن الكريم اتخذ منهجاً يخالف منهج التوراة ومنهج الإنجيل . فلم يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل . ولم يستوف القصة من جميع نواحيها . كما جرى عليه أمر التوراة والإنجيل . بل اقتصر من ذلك على مواضع العبرة فقط .

ولما كانت العقول - دائماً - تميل إلى الاستيفاء والاستقصاء - جعل بعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين - يرجعون في استيفاء القصص التي لم يتعرض لها القرآن الكريم من جميع نواحيها إلى من دخل في الإسلام من أهل الكتاب : كعبد الله بن سلام . وكعب الأحمار . وغيرهما من علماء اليهود والنصارى . وهذا - بالضرورة - كان بالنسبة لمن

ليس عندهم فيه شيء عن رسول الله ﷺ : لأنه لو ثبت في ذلك شيء عن رسول الله ﷺ ما كانوا يعدلون عنه إلى غيره مهما كان المأخوذ عنه .

غير أن رجوع بعض الصحابة إلى أهل الكتاب لم يكن له من الأهمية في التفسير ما للمصادر الثلاثة السابقة . وإنما كان مصدراً محدوداً ، وذلك لأن التوراة والإنجيل وقع فيهما كثير من التحريف والتبديل ، وكان طبيعياً

أن يحافظ الصحابة على عقيدتهم ، ويصونوا القرآن عن أن يخضع في فهم معانيه لشيء مما جاء ذكره في هذه الكتب غير الموثوق بها .

أشهر المفسرين من الصحابة

اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل ، وقد عدّ السيوطي في الإقتان من اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم ، وهم : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير ، رضي الله عنهم .

وهناك من تكلم في التفسير من الصحابة غير هؤلاء : كأنس بن مالك ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، وعائشة أم المؤمنين ، وما نقل عن هؤلاء في التفسير قليل جداً .

غير أن أربعة من الصحابة اشتهروا بالتفسير ، ونقل عنهم فيه أكثر من غيرهم ، وهؤلاء الأربعة هم :

- ١ - عبد الله بن عباس (٢) عبد الله بن مسعود (٣) علي ابن أبي طالب (٤) أبي ابن كعب وقد رتبناهم على حسب كثرة الروى عنهم .

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة

نتلخص قيمة التفسير المأثور عن الصحابة فيما يلي :

١ - إذا كان تفسير الصحابي مما يرجع إلى أسباب النزول . أو كان مما لا مجال للرأى فيه - فهو فى حكم المرفوع إلى الرسول ﷺ . لأنه لا يعقل أن يقول فيه الصحابي برأيه . ولهذا يجب الأخذ به . ولا يجوز رده اتفاقاً .

٢ - إذا كان تفسير الصحابي مما يكون للرأى فيه مجال - فهو موقوف عليه مادام لم يسنده إلى رسول الله ﷺ . وهذا تختلف فيه أنظار العلماء : فذهب فريق منهم إلى أنه يجب ألا يؤخذ به . لأنه لما لم يرفعه علم أنه اجتهد فيه ، والمجتهد يخطئ ويصيب ، والصحابة فى اجتهادهم كسائر المجتهدين .

وذهب فريق آخر : إلى أنه يجب الأخذ به ؛ لظن سماعه له من رسول الله ﷺ . ولأنهم إن فسروا برأيهم فأرأيهم صواب ؛ لأنهم أدرى الناس بكتاب الله .

مميزات التفسير فى هذه المرحلة

يمتاز التفسير فى هذه المرحلة بالمميزات الآتية :

- ١ - لم يفسر كل القرآن . وإنما فسر بعضه . وهو ما كان خافياً على الصحابة . وسألوا عنه رسول الله ﷺ .
- ٢ - إن الاختلاف فى التفسير كان قليلاً .
- ٣ - الاكتفاء - فى كثير من الأحيان - بالمعنى الإجمالى . فيكفى أن يفهموا من مثل قوله تعالى « فأكبه وأباً (١) » أنه تعداد لنعم الله تعالى على عباده . أما ما الأب ؟ فذلك هو التكلف . كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقد ذكرنا القصة من قبل ص ١٧ .
- ٤ - الاختصار فى توضيح المعنى اللغوى الذى فهموه على أحصر لفظ . مثل قولهم : « غير متجانف لإثم (٢) » أى غير متعرض لمعصية . فإن زادوا على ذلك فما عرفوه من سبب النزول .
- ٥ - ندرة الاستنباط العلمى للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية . وعدم الانتصار للمذاهب الدينية ضرورة اتحادهم فى العقيدة . لأن الخلافات المذهبية لم توجد إلا بعد عصر الصحابة .

(١) سورة عبس - الآية ٣١

(٢) سورة المائدة - الآية ٣

٦ - لم يدون شيء من التفسير في هذه المرحلة كعلم : لأن تدوين العلوم لم يبدأ إلا في القرن الثاني الهجري .

٧ - اتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث . ولم يكن التفسير إلا مجرد روايات تروى منثورة لآيات متفرقة : يسأل الرسول ﷺ عن معنى آية من القرآن الكريم فيقول فيها ما شاء الله أن يقول . ويحمل ذلك عنه بعض أصحابه فيروونها لمن لم يسمعها منهم . أولمن يتلقون عنهم من التابعين . وبالحملة فإن التفسير لم يتجاوز - في هذه المرحلة - طريق الرواية (١) . وهي الأصل فيما يعرف بالتفسير المأثور . وسيأتى الحديث عنه إن شاء الله .

المرحلة الثانية للتفسير

أو التفسير في عصر التابعين

بدء هذه المرحلة :

تنتهى المرحلة الأولى للتفسير بانصرام عصر الصحابة . وتبدأ المرحلة الثانية للتفسير من عصر التابعين الذين تتلمذوا للصحابة . فجلسوا إليهم . وأخذوا عنهم .

(١) ليس معترض أن يعترض علينا بتفسير (توير المقياس) المنسوب لابن عباس . لأن نسبه إليه لم تصح .

وكما اشتهر بالتفسير بعض أعلام الصحابة اشتهر بالتفسير . كذلك بعض أعلام التابعين .

مصادر التفسير في هذه المرحلة :

وكما كان للتفسير في عصر الصحابة مصادر يرجعون إليها ويقبسون منها - كذلك كان للتابعين مصادر للتفسير يرجعون إليها ويقبسون منها . والفارق بين مصادر هؤلاء وأولئك فارق بسيط ضرورة تقارب العصرين . وإليك هذه المصادر :

- ١ - القرآن الكريم . فليس لمفسر أن يعدل عنه إلى غيره .
- ٢ - ما أثر وضح عن رسول الله ﷺ في التفسير « إن هو إلا وحي يوحى » (١) .
- ٣ - ما روى عن الصحابة من تفسيرهم هم . لأنهم عاصروا الرسول ﷺ . وعاصروا نزول القرآن . وعرفوا أسباب نزوله .
- ٤ - ما نقل عن أهل الكتاب مما جاء في كتبهم . على نحو ما قلنا بالنسبة للصحابة . غير أن بعض التابعين توسعوا في ذلك وتساهلوا في نقل المروى منه دون تحرر للصحة .
- ٥ - ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله .

(١) سورة النجم الآية ٤

حركة التفسير ومدارسه في هذه المرحلة

قلنا فيما سبق : إن ما نقل عن الرسول ﷺ في التفسير قليل ، وكذلك ما نقل عن أصحابه ، وكان هذا أمراً طبيعياً ، لأن القوم حين ذاك كانوا عرباً خلصاً ، ولم يكن هناك من الغموض عليهم بالنسبة لآيات القرآن إلا النزر اليسر .

ثم يمضى عصر النبي ﷺ وأصحابه ، ويمتد الزمن بالناس إلى عهد التابعين ، وفيه يزداد الغموض على الناس فيحتاجون إلى من يكشف لهم الغموض ، ولا يرون أمامهم إلا فقهاء التابعين وعلماءهم . فيسألوهم عما غمض عليهم ، فيفسروه لهم . ويبصروهم به ، وبذلك يكون التابعون قد زادوا في التفسير بمقدار ما زاد على الناس من غموض .

... وهكذا تمضى حركة التفسير . وتسير في نمو مطرد مع زيادة الغموض إلى أن ينتهى الأمر بتفسير القرآن كله .

ولم تقف حركة التفسير حيث استقر الرسول وأصحابه في دار الهجرة ، بل نرى حركة التفسير تسير بسير من اشتهر بالتفسير من الصحابة . وتستقر حيثما استقروا : فمن رحل منهم بعد الفتح الإسلامي إلى مكة رحل معه التفسير إليها . ومن استقر منهم بالمدينة استقر معه التفسير بها ، ومن نزع منهم إلى العراق نزع معه التفسير إليها وحيثما يُقِم عالم التفسير في

أى من الأمصار يجلس للناس يفسر لهم كتاب الله عز وجل ، فيحملوا عنه علمه ، وينقلوه بعد لمن وراءهم ، ولقد قامت على أيدي هؤلاء العلماء الأعلام من الصحابة مدارس نسبت إليهم ، وتعلمد عليهم فيها نفر كثير من التابعين ، وأشهر هذه المدارس :

أولاً - مدرسة التفسير بمكة : وتنتمى إلى عبد الله بن عباس وأشهر تلاميذه بها من التابعين : سعيد بن جبير ، ومجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى بن عباس . وطاوس بن كيسان اليماني . وعطاء بن أبى رباح . ثانياً - مدرسة التفسير بالمدينة : وتنتمى إلى أبى بن كعب . وأشهر تلاميذه بها من التابعين : أبو العالية : رفيع بن مهران الرياحي ، ومحمد ابن كعب القرظي ، وزيد بن أسلم .

ثالثاً - مدرسة التفسير بالعراق : وتنتمى إلى عبد الله بن مسعود ، وأشهر تلاميذه بها من التابعين :

علقمة بن قيس النخعي ، ومسروق بن الأجدع الهمداني ، والأسود بن يزيد النخعي . ومرة الهمداني ، وعامر الشعبي ، والحسن البصري ، وقتادة بن دعامة السدوسي .

... . وبعد فهؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين ، وهذه هي مدارسهم التي انتموا إليها ، وأولئك هم شيوخهم الذين تتلمذوا عليهم ، ولا شك أن كل هؤلاء الآخذين والمأخوذ عنهم كانوا على مبلغ عظيم من العلم بكتاب الله ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل الجنة مثواهم .

قيمة التفسير المأثور عن التابعين

اختلف العلماء في قيمة ما يروى عن التابعين في التفسير . وفي الأخذ بأقوالهم إذا لم يؤثر في ذلك شيء عن الرسول ﷺ أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ونلخص ذلك فيما يلي :

١ - عن الإمام أحمد . رضى الله عنه . روايتان في ذلك :
رواية بالقبول . ورواية بعدم القبول .

٢ - وذهب بعض العلماء - محكى عن شعبة - إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعي : وحثهم في ذلك : أن التابعين لبس خم سماع من رسول الله ﷺ . فلا يمكن احصاء عليه كما قيل في تفسير الصحابي : إنه محمول على سماعه من النبي ﷺ . وبأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن . فيجوز عليهم خطأ في فهم المراد من النص القرآني . . قالوا : ومع ذلك فعدالة التابعين غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة : نقل عن أبي حنيفة رضى الله عنه أنه قال : « ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين » . وما جاء عن الصحابة تحيرون . وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال .

٣ - وذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بقول التابعي في التفسير .

لأن التابعين تلقوا أغلب تفسيراتهم عن الصحابة . فمجاهد مثلاً

يقول : « عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية أسأله : فيم نزلت ؟ وكيف كانت ؟ » (١) . وقتادة يقول : « ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً » (٢) . ولذا حكى أكثر المفسرين أقوال التابعين في كتبهم . ونقلوها عنهم مع اعتمادهم لها .

والذي تميل إليه النفس في هذه المسألة هو : أن قول التابعي في التفسير يجب عدم الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأى فيه . فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الرية . فإن ارتبنا فيه بأن كان يأخذ عن أهل الكتاب فلنا أن نترك قوله ولا نعتد عليه . أما إذا أجمع التابعون على رأى فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره .

مميزات التفسير في هذه المرحلة

يتميز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية :

١ - دخل في التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات . وقد تساهل بعض المفسرين من التابعين . فزجوا بها في التفسير برغم بطلانها . ولا شك أن هذا أمر مأخوذ عليهم . كما هو مأخوذ على من بعدهم .

(١) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤٢ : ط : المحدث سنة ١٣٢٥ هـ

(٢) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص ٢٨ وعزا الرواية للترمذي .

٢ - ظل التفسير محتفظاً بطابع التلقي والرواية . غير أنه لم يكن تلقياً ورواية على الشمول كما كان عليه الشأن في عصر النبي ﷺ . وإنما كان تلقياً ورواية يغلب عليها طابع الاختصاص : فأهل كل مصر يُعَوَّن بوجه خاص . بالتلقي والرواية عن إمام مصرهم : فالمكيون عن ابن عباس . والمدنيون عن أبي . والعراقيون عن ابن مسعود . . . وهكذا .

٣ - ظهر في التفسير تفسيرات تحمل في طياتها الانتصار لبعض المذاهب الدينية التي ظهرت في هذا العصر . عصر التابعين : فنجد مثلاً - قتادة بن دعامة السدوسي ينسب إلى الخوض في القضاء والقدر . ويتهم بأنه قذري . كما نجد الحسن البصري يفسر القرآن على إثبات القدر . ويكفر من يكذب به .

٤ - كثر الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم . وإن كان اختلافاً قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسرين .

المرحلة الثالثة للتفسير أو التفسير في عصر التدوين

بدء هذه المرحلة :

تبدأ المرحلة الثالثة للتفسير من مبدأ ظهور التدوين . وذلك في أواخر خلافة بني أمية وأوائل خلافة العباسيين .

خطوات التفسير في هذه المرحلة :

كانت الخطوة الأولى للتفسير في مرحلته : الأولى والثانية . كما قدمنا - هي رواية التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين ولم يكن هناك من سبيل لتلقي التفسير المأثور عن هؤلاء إلا بطريق الرواية : لأن تدوين العلوم - ومنها علم التفسير - لم يبدأ إلا بعد زمن التابعين .

ثم جاءت المرحلة الثالثة للتفسير . وفيها ابتداء تدوين العلوم ، وخطا التفسير خطوته الثانية : وذلك حيث ابتداء التدوين لحديث رسول الله ﷺ ، فكانت أبوابه متنوعة ، وكان التفسير باباً من هذه الأبواب التي اشتمل عليها الحديث . فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة . وآية آية من مبدئه إلى منتهاه . بل وجد من العلماء من طوف في

الأمصار المختلفة ليجمع الحديث ، فجمع بجوار ذلك ما روى في الأمصار من تفسير منسوب إلى النبي ﷺ أو إلى الصحابة أو إلى التابعين . ومن هؤلاء : يزيد بن هارون السلمي المتوفى سنة ١١٧ هـ وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ .

ثم خطا التفسير خطوته الثالثة : وبها انفصل عن الحديث ، فأصبح علماً قائماً بنفسه ، ووضع التفسير لكل آية من القرآن على حسب ترتيب المصحف ، وتم ذلك على أيدي طائفة من العلماء منهم : ابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ وغيرهما . وكل هذه التفسير مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة والتابعين وتابعيهم . وليس في واحد منها شيء من التفسير أكثر من التفسير المأثور ، اللهم إلا ابن جرير الطبري ، فإنه ذكر الأقوال ، ثم وجهها ، ورجع بعضها على بعض ، وزاد على ذلك الإعراب إن دعت إليه حاجة . كما استنبط الأحكام التي تؤخذ من الآيات القرآنية . وسنعود إلى الحديث عن هذا بشيء من التفصيل المأثور بين الرواية والتدوين .

ثم خطا التفسير خطوته الرابعة : لم يتجاوز فيها حدود التفسير بالمأثور . وإن كان قد تجاوز روايته بالإسناد ، فصنف في التفسير خلق كثير : انصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون أن ينسبوها إلى قائلها ، فدخل الوضع في التفسير ، واختلط الصحيح بالعليل . وكان هذا هو مبدأ الوضع في التفسير

ثم جاءت الخطوة الخامسة : وهي أوسع الخطى وأفسحها : امتدت من العصر العباسي إلى يومنا هذا . فبعد ما كان تدوين التفسير مقصوراً على رواية ما نقل عن سلف الأمة . تجاوز بهذه الخطوة الواسعة إلى تدوين تفسير يختلط فيه التفسير العقلي بالتفسير النقل المأثور . وهنا بدأ التفسير العقلي يظهر بصورة ملحوظة . . ولكن على تدرج :

بدأ التفسير العقلي - أولاً - على هيئة محاولات فهم شخصي . وترجيح لبعض الأقوال على بعض . . ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصي تزداد شيئاً فشيئاً متأثرة بالمعارف المختلفة . والعلوم المتنوعة . والآراء المتشعبة . والعقائد المتباينة . حتى وجد من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بعد عظيم :

دونت علوم اللغة . ودون النحو والصرف . وأثيرت مسائل الكلام . وظهر التعصب المذهبي على قدمه وساقه في العصر العباسي . وقامت الفرق الإسلامية بنشر مذاهبها والدعوة إليها . وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة . فامترجت كل هذه العلوم بالتفسير حتى طغت عليه . وغلب الجانب العقلي فيها على الجانب النقل .

وإننا لنلاحظ أن الكتب المؤلفة في التفسير قد اتجهت اتجاهات متنوعة . وتحكمت المصطلحات العلمية . والعقائد المذهبية - في عبارات القرآن الكريم . فظهرت آثار الثقافة الفلسفية والعلمية للمسلمين في تفسير القرآن ، كما ظهرت آثار التصوف واضحة فيه وكذلك ظهرت

آثار النحل والأهواء فيه ظهوراً جلياً .

وإننا لنلاحظ - أيضاً - في وضوح وجلاء - أن كل من برع في فن من فنون العلم يكاد يقتصر تفسيره على الفن الذي برع فيه :
فالنحوي تراه لا هم له إلا الإعراب وذكر ما يخطر في ذلك من أوجه . وتراه ينقل مسائل النحو وفروعه . وخلافاً : وذلك كالزجاج . والواحدى في تفسيره البسيط . وأبي حيان في البحر المحيط . وصاحب العلوم العقلية نراه يعنى في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة . كما نراه يعنى بذكر شبههم والرد عليها : وذلك كالصخر الرازى في تفسيره المسمى (مفاتيح الغيب) .

وصاحب الفقه نراه يعنى بذكر الفروع الفقهية وسرد المذاهب فيها . وسوق الأدلة عليها . في تعصب ظاهر لمذهبه : وذلك كالجصاص الحنفى وابن العربى المالكي .

وصاحب التاريخ يهتم بالقصص . وذكر أخبار من سلف . ما صح منها وما لا يصح : كالثعلبي والخازن .

وصاحب البدع والأهواء يحرص كل الحرص على ترويح بدعته . وتفسير القرآن على هواه ومذهبه : كالجبائي والزمخشري من المعتزلة . وملا محسن الكاشي من الإمامية الاثني عشرية .

والمتصوفة قصدوا إلى الترغيب والترهيب . واستخراج المعاني الإشارية بما يتفق مع مشاربهم . ويتناسب هو ورياضتهم ومواجيدهم :

كابن عربى . وأبى عبد الرحمن السلمى .

... وهكذا فسر كل صاحب فن أو مذهب بما يناسب فنه الذى برع فيه . ومذهبه الذى استمسك به .

وقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية المذهبية ، وراجت في بعض العصور رواجاً عظيماً : كما راجت في عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أصحابها من ورائها أن يحملوا آيات القرآن الكريم كل العلوم ما ظهر منها وما بطن في غلو ظاهر يخرج بالقرآن الكريم عن أهدافه ومقاصده !

أنواع التفسير

وإذا نحن تتبعنا كتب التفسير على اختلاف أزمانها ، وتنوع مناهجها واتجاهاتها . - وجدنا أن المناحي العامة التى تجمع هذه المناهج والاتجاهات تنحصر في خمسة أنواع من التفسير . وهى :

- ١ - التفسير المأثور .
- ٢ - التفسير بالرأى أو التفسير العقلى .
- ٣ - التفسير الموضوعى .
- ٤ - التفسير الإشارى .
- ٥ - التفسير العلمى .

ونتكلم عن كل نوع من هذه الأنواع المختلفة فنقول :

١ - التفسير المأثور

حقيقة التفسير المأثور :

نريد بالتفسير المأثور : ما نقل عن الرسول ﷺ . وما نقل عن صحابته رضوان الله عليهم أجمعين . وما نقل عن التابعين من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم . وإنما أدرجنا في التفسير المأثور ما روى عن التابعين ... وإن كان فيه خلاف : هل هو من قبيل المأثور أو من قبيل الرأي ؟ - لأننا وجدنا كتب التفسير تروى ما نقل عن التابعين بخوار ما نقل عن النبي ﷺ وما نقل عن أصحابه رضوان الله عليهم .

تطور التفسير المأثور بين الرواية والتدوين :

ولقد مرّ التفسير بالمأثور - كما أشرنا من قبل - بطورين : طور الرواية . وطور التدوين :

أما طور الرواية : فقد بدأ من عصر النبي ﷺ حيث كان عليه الصلاة والسلام يفسر لأصحابه ما خفي عليهم من القرآن الكريم ، وكان الصحابة يتلقونه عنه . ثم يرويه بعضهم لبعض . أو لمن عاصروهم من التابعين .

ثم وجد من الصحابة من تكلموا في التفسير بما ثبت لديهم عن رسول الله ﷺ أو بما توصلوا إليه بنظرهم واجتهادهم . ونقل ذلك عنهم بعض من عاصروهم من التابعين .

ثم وجد من التابعين من تكلموا في التفسير بما ثبت لديهم عن رسول الله ﷺ . أو عن بعض أصحابه أو بما فتح الله به عليهم . ونقل ذلك عنهم من عاصروهم من أتباع التابعين .

ولقد كان شأن رواية التفسير المأثور كشأن رواية الحديث بعامة من ناحية تحرى الصحة وعدمها . فقد استمر هذا التحرى والتثبت إلى آخر عصر الصحابة . أما بعد عصر الصحابة فقد أدخل بعض الرواة في التفسير ما ليس منه تهاونا منهم . أو نصرةً لمذهب معين . وسنعرض لذلك بشيء من التفصيل فيما بعد إن شاء الله .

وأما طور التدوين :

فقد بدأ - كما قلنا آنفاً - بانتهاء مرحلة الرواية وابتداء مرحلة التدوين للعلوم بعامة . وكان التفسير من بين العلوم التي دونت . وكان تدوينه على تدرج ملحوظ نجمله فيما يلي :

١ - بدأ تدوين التفسير على أنه جزء من الحديث . فأفردوا له باباً من أبواب الحديث المختلفة ، فكانوا يجمعون فيه ما أثر في التفسير عن النبي ﷺ . وعن الصحابة والتابعين متحرين الصحة في ذلك ما أمكنهم .

٢ - ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث . وأفرد بتأليف خاص . وكان أول ما عرف من ذلك تلك الصحيفة التي رواها علي بن طلحة عن ابن عباس (١) .

٣ - ثم وجد من ذلك جزء أو أجزاء دونت في التفسير خاصة : كالجزء المنسوب لأبي روق . والأجزاء الثلاثة التي يرويها محمد بن ثور عن ابن جريج (٢) . وكانوا يتحرون الصحة فيما يجمعون ما أمكنهم .

٤ - ثم دونت موسوعات في التفسير جمعت كل ما وقع لأصحابها من التفسير المروى عن النبي ﷺ . وعن أصحابه والتابعين . دون أن يلتزموا بالصحيح من ذلك مكتفين بذكر أسانيد ما يجمعون . ذلك لأنهم يرون أنهم بذكرهم للأسانيد قد خرجوا من العهد . وحملوا غيرهم تبعه البحث عن حال الرواة . وقد قرر ذلك علماء أصول الحديث بقولهم : « من أسند لك فقد حملك » : ومن هذه الموسوعات تفسير ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

٥ - ثم دونت بعد ذلك موسوعات في التفسير . ولم يتحرر أصحابها الصحة فيما يروون . ولم يذكروا الأسانيد . وهؤلاء قد أساءوا بالتفسير المأثور إساءة بالغة : لأنهم خلطوا بين ما يصح وما لا يصح . ولم يبينوا لنا رجال الأسانيد حتى نستطيع أن نحكم لهم أو عليهم : ومن هذه الموسوعات تفسير (بحر العلوم) لأبي الليث السمرقندي المتوفى سنة

٣٧٣ هـ (١) . فلا تكاد تقع فيه على إسناد إلا نادرا .

٦ - ثم بعد ذلك انتقل التدوين في التفسير من تدوين التفسير المأثور إلى تدوين التفسير بالرأى على تدرج ملحوظ تكلمنا عنه فيما سبق في الصفحات : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

تطرق الضعف إلى التفسير المأثور وأسبابه :

مما لا شك فيه أن الضعف قد تطرق إلى التفسير المأثور حتى كاد يذهب بالثقة فيه والاطمئنان إليه .

ولقد بدأ الضعف يتطرق إلى التفسير المأثور بصورة مزعجة في أول عصر التابعين . وعلى وجه التحديد سنة إحدى وأربعين من الهجرة : حينما انقسم المسلمون إلى شيعة وخوارج وجمهور . وحينما كثرت الفتوح الإسلامية وانتسب إلى الإسلام حاقدون عليه يريدون تخريبه من أساسه . وحينما تعددت المذاهب الدينية والسياسية وأراد أصحابها أن يدعموها ولم بالأحاديث الموضوعة التي يخلقونها ثم ينسبونها إلى نبي الإسلام أو إلى أحد أصحابه .

ونستطيع أن نرجع أسباب الضعف في رواية التفسير المأثور إلى أمور ثلاثة :

أولها : كثرة الوضع في التفسير المأثور .

ثانيها : دخول الإسرائيليات فيه .

ثالثها : حذف الأسانيد منه .

أما كثرة الوضع في التفسير المأثور : فقد أضعفت الثقة فيه . وأحاطته بسياج من الشك جعلت العلماء يردون كل رواية تطرق إليها شيء من الضعف ، وربما كانت صحيحة في ذاتها .

كما أن اختلاط الصحيح بالعليل من الروايات جعل بعض من ينظر فيها وليس عنده القدرة على التمييز بينها — ينظر إلى الجميع نظرة واحدة ، فيحكم لها جميعاً بالصحة . وهذا يختلط الأمر على الناظرين في هذه الروايات ، ويبقى دور نقاد الحديث الذين يقدرّون على تمييز صحيحه من عليله . وما أشقها من مهمة !

وأما دخول الإسرائيليات في التفسير المأثور : فقد بدأ من عصر الصحابة . ولكنهم لم يتعدوا منطقة الإباحة التي حدّها لهم رسول الله ﷺ بقوله : « بلغوا عني ولو آية . وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج . ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ^(١) » . وبقوله : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا : « آمنا بالله وما أنزل إلينا . . . » الآية ^(٢) » .

وفي زمن التابعين توسع القوم في الأخذ عن أهل الكتاب ، فكثر

في عهدهم الروايات الإسرائيلية في التفسير لكثرة من دخل في الإسلام من أهل الكتاب ، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية .

ثم جاء بعد عصر التابعين من شغفوا بالإسرائيليات ، وأفرطوا في الأخذ منها إلى درجة جعلتهم لا يردون قولاً ، ولا يحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن كل ما يروى لهم وإن كان لا يتصوره عقل بشر ! . . . وقد استمر هذا الشغف بالإسرائيليات والولع بروايتها — مهما كان فيها من خرافة — حتى جاء عصر التدوين ، فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلي الذي كاد يصدّ الناس عن النظر فيها والركون إليها .

ولقد كان للقصص والإخباريين دور كبير في ترويح هذه الخرافات والأباطيل ، وهؤلاء وغيرهم ممن ساروا في ركابهم قد وضعوا الشوك في طريق المشتغلين بالتفسير ، وشكّكوا في كثير من الأخبار الصحيحة التي رويها ضمن ما رويوه من قصص مكذوب .

وأما حذف الأسانيد : فلم يعرف ذلك إلا بعد عصر التابعين حيث تهاون الرواة في الرواية ، ولم يصلوها برواتها ، وقد اندفع بعض المشتغلين بالتفسير وراء هذا المبدأ : فوجدنا منهم من ألفوا في التفسير ، فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال غير معزّوة لقائلها ، ولم يتحرروا الصحة فيما يروون ، فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل ! . . .

(١) البخاري ج ٦ ص ٣٢٠ من فتح الباري

(٢) البخاري - باب التفسير ج ٨ ص ١٢٠ من فتح الباري

ثم صار كل من يسبح له قول — يورده . ومن يخطر بباله شيء يعتمد عليه ، ثم ينقل ذلك من يحيى بعده ظاناً أن له أصلاً غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف .

... وبعد فعله قد استبان لنا خطورة هذه الأمور الثلاثة على التفسير المأثور . ولعل من الواضح أن أشدها خطورة هو حذف الأسانيد . ذلك لأن خطر الوضع . وخطر الإسرائيليات كان من الممكن تلافيهما لو ذكرت الأقوال بأسانيدها . ولكن حذفها — مع الأسف — عمى علينا كل شيء ، وليت هؤلاء الذين حذفوا الأسانيد ذكروها لنا لننقد رجالها ؛ حتى نعرف من يؤخذ عنه ، ومن يرد عليه !

... هذا ، وإن من أشهر ما دون في التفسير المأثور على مدى تاريخ التفسير ما يلي :

- ١ — جامع البيان في تفسير القرآن : لابن جرير الطبري — المتوفى سنة ٣١٠ هـ .
- ٢ — معالم التنزيل : لأبي محمد الحسين البغوي — المتوفى سنة ٥١٠ هـ .
- ٣ — تفسير القرآن العظيم : للحافظ بن كثير الدمشقي — المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .
- ٤ — الدر المنثور : لجلال الدين السيوطي سنة ٩١١ هـ .

* * *

٢ - التفسير بالرأى أو التفسير العقلي

حقيقة التفسير بالرأى :

التفسير بالرأى أو التفسير العقلي معناه : تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب . ومناحيهم في القول . ومعرفته للألفاظ العربية ووجود دلالتها . واستعانة في ذلك بالشعر الجاهلي . ووقوفه على أسباب النزول . ومعرفته بالنسخ والمنسوخ من آيات القرآن الكريم . . . وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر . وسيأتى بيانها إن شاء الله .

وقد مر بنا الكلام عن نشأة التفسير بالرأى وتطوره عند الكلام عن الخطوة الخامسة للتفسير في المرحلة الثالثة ص ٣٥-٣٨ فلا داعي لإعادته .

موقف العلماء من التفسير بالرأى

اختلف العلماء من قديم في جواز التفسير بالرأى :

ففرق منهم قال بعدم جوازه حتى من كان ملماً بكل العلوم والأدوات التي يحتاج إليها المفسر . وقالوا بوجوب انتهاء المفسر إلى ما ثبت

عن النبي ﷺ . وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة . وعن الذين أخذوا عنهم من التابعين .

وفريق آخر من العلماء قال بجوازه لمن كان ملماً بكل العلوم والأدوات التي يحتاج إليها المفسر .

وقد استدل كل فريق بأدلة نجزها فيما يلي :

أدلة القائلين بعدم الجواز :

١ - قالوا : إن التفسير بالرأى قول على الله بغير علم . والقول على الله بغير علم منهي عنه . فالتفسير بالرأى منهي عنه .

٢ - قالوا : إن الله تعالى قل لنبيه عليه الصلاة والسلام : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » فقد أضاف البيان إليه . فعلم أنه ليس لغيره شيء من البيان لمعاني القرآن .

٣ - قالوا : ورد في حديث رواه الترمذي مرفوعاً وحسنه « . . . ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » (١) .

وورد في حديث رواه الترمذي وأبو داود عن جندب أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » (٢) .

٤ - قالوا : ورد عن السلف من الصحابة والتابعين من الآثار ما يدل

على أنهم كانوا يعظمون تفسير القرآن ، ويتخرجون من القول فيه بآرائهم . فمن ذلك :

ما جاء عن أبي مليكة أنه قال : سئل أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - في تفسير حرف من القرآن فقال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني . وأين أذهب إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله تبارك وتعالى (١) ؟

وما جاء عن سعيد بن المسيب : أنه كان إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم . وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكوت كأن لم يسمع شيئاً (٢) .

... وغير ذلك من الروايات التي تدل على تخرج كثير من السلف عن القول في القرآن باجتهادهم .

أدلة القائلين بالجواز :

١ - قالوا : ورد في القرآن نصوص كثيرة تدل على جواز التفسير بالرأى لمن هم أهل لذلك ، فمن ذلك :

قوله تعالى : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » (٣) .

(١) مقدمة تفسير ابن جرير ج ١ ص ٧٨

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٨٥ - ٨٦ وقد روى الأثر بروايات مختلفة

(٣) سورة محمد ﷺ - الآية ٢٤

(١) الترمذي في أبواب التفسير ج ٢ ص ١٥٧ ط . الأميرية سنة ١٢٩٢ هـ .

(٢) المرجع السابق

ومنه قوله تعالى : « كِتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » (١) .

ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ » (٢) .

٢ - قالوا : لو كان التفسير بالرأى غير جائز ما كان الاجتهاد جائزاً ، ولتعطل كثير من الأحكام ، وهذا باطل بين البطلان ؛ لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً إلى اليوم والمجتهد مأجور ، والنبي ﷺ — لم يفسر لنا جميع آيات القرآن ، ولم يستنبط لنا جميع أحكامه .

٣ - قالوا : إن الصحابة — رضوان الله عليهم — قالوا في القرآن برأيهم ، واختلفوا في فهم بعض نصوصه ، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه عن رسول الله ﷺ ، ولو كان القول بالرأى في القرآن محظوراً لكانوا قد خالفوا ووقعوا فيما حرم الله ، وهذا ما نعيذ الصحابة من الوقوع فيه .

٤ - قالوا : إن النبي ﷺ دعا لابن عباس — رضى الله عنهما — بقوله : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » فلو كان التأويل مقصوراً على السماع والنقل كالتزويل ما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء ، فدل ذلك على أن التأويل الذى دعا به الرسول —

(١) سورة ص - الآية ٢٩ .

(٢) سورة النساء - الآية ٨٣ .

ﷺ — لابن عباس أمر آخر وراء السماع والنقل ، وهو التفسير بالرأى والاجتهاد .

هذه هي أدلة الفريقين ، وقد ردّ الفريق الأخير أدلة الفريق الأول ، ولا داعى — أبداً — إلى تحليل أدلة المانعين والمجيزين ؛ لأن ذلك قد يطول بنا ونحن في موطن الإيجاز . وحقيقة الأمر هي :

أنا لو رجعنا إلى هؤلاء المتشددين في التفسير ، وعرفنا سر تشددهم فيه ، ثم رجعنا إلى هؤلاء المجوزين للتفسير بالرأى ، ووقفنا على ما شرطوه من شروط لا بد منها لمن يتكلم في التفسير برأيه . وحللنا أدلة الفريقين تحليلاً دقيقاً — لظهر لنا أن الخلاف لفظى لا حقيقى . وذلك أن الرأى قسمان :

قسم جارٍ على موافقة كلام العرب ومناحيهم في القول . مع موافقة الكتاب والسنة . ومراعاة سائر شروط التفسير ، وهذا القسم جائز لا شك فيه . وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأى .

وقسم غير جارٍ على قوانين العربية . ولا موافق للأدلة الشرعية ، ولا مستوفٍ لشرائط التفسير . وهذا هو مورد الهى ومحط الذم . وهو الذى يرمى إليه كلام عمر - رضى الله عنه - إذ يقول « إنما أخاف عليكم رجلين : رجل يتأول القرآن على غير تأويله ، ورجل ينافس الملك على أخيه » فهذا ونحوه وارد في حق من لا يراعى في تفسير القرآن قوانين اللغة . ولا أدلة الشريعة جاعلاً هواه رائده ، ومذهبه قائده ؛ وهذا هو

الذى يحمل عليه كلام المانعين للتفسير بالرأى : قال ابن تيمية — بعد أن ساق الآثار عمن تخرج من السلف من القول بالتفسير — فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم من الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به . فاما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه . ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير ولا منافاة . لأنهم تكلموا فيما علموه . وسكتوا عما جهلوه . هذا هو الواجب على كل أحد . فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به . فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه . لقوله تعالى : « لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ » (١) . ولما جاء فى الحديث المروى من طرق : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » (٢) .

هذا . وما دمنا قد ألحنا إلى ضرورة الإلمام بالعلوم والأدوات التى يحتاج إليها المفسر برأيه حتى لا يجانب الصواب — نرى لزماً علينا أن نعرض لبيان هذه العلوم . ثم لبيان المصادر التى يجب على المفسر برأيه أن يرجع إليها . ثم للأمور التى يجب على المفسر أن يتجنبها فى تفسيره فنقول :

العلوم التى يحتاج إليها المفسر

اشترط العلماء فى المفسر الذى يريد أن يفسر القرآن برأيه فيما لم يرد فيه أثر صحيح : أن يكون ملماً بجمللة العلوم التى يستطيع بها أن يفسر القرآن تفسيراً عقلياً مقبولاً . وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تعصم المفسر من الوقوع فى الخطأ . وتحصيه من القول على الله بغير علم . وهذه العلوم هى :

١ - علم اللغة : لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع .
٢ - علم النحو : لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب . فلا بد من اعتباره .

٣ - علم الصرف : لأن به تعرف الأبنية والصيغ .
٤ - علم الاشتقاق : لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافهما .

٥ . ٦ . ٧ - علوم البلاغة الثلاثة : (المعانى . والبيان . والبديع) : فعلم المعانى : يعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى .

وعلم البيان : يعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها .

(١) سورة آل عمران - الآية ١٨٧

(٢) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٣١ - ٣٢

وعلم البديع : يعرف به وجود تحسين الكلام .

٨ - علم القراءات : إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه

المختلفة على بعض .

٩ - علم أصول الدين (وهو علم الكلام) : وبه يستطيع المفسر أن

يستدل على ما يجب في حقه تعالى . وما يجوز . وما يستحيل . وأن ينظر

في الآيات المتعلقة بالنبوات والمعاد . . . وما إلى ذلك نظرة صائبة .

١٠ - علم أصول الفقه : إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من

الآيات ويستدل عليها . ويعرف الإجمال والتبيين . والعموم

والخصوص . والإطلاق والتقييد . والأمر والنهي . وما سوى ذلك من

كل ما يرجع إلى هذا العلم .

١١ - علم أسباب النزول : إذ إن معرفة سبب النزول تعين على

فهم المراد من الآية .

١٢ - علم القصص : لأن معرفة القصة تفصيلاً تعين على توضيح

ما أجمل منها في القرآن .

١٣ - علم النسخ والمنسوخ : وبه يعرف المحكم من غيره . ومن

فقد هذه الناحية فربما أفتى بحكم منسوخ في الصلال والإضلال .

١٤ - علم الحديث : ليستعين به على معرفة الجمل والمبهم . وغير

ذلك مما جاءت السنة شارحة ومبينة له .

١٥ - علم الموهبة : وهو علم يورثه الله تعالى من عمل بما علم .

وإليه الإشارة بقول الله عز وجل : «واتقوا الله ويعلمكم الله» (١) وقوله عليه الصلاة والسلام : «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللَّهُ عَلِمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» (٢) .

. . هذا وقد زاد بعضهم علم أحوال البشر ، وبعضهم علمى التاريخ وتقويم البلدان . وبعضهم نقص مما ذكرناه . وأياماً كان الأمر فكل علم يتوقف عليه تفسير شيء من كتاب الله تعالى تجب على المفسر معرفته . وإلا كن غير مستوف لشروط التفسير .

مصادر التفسير لمن يقول في القرآن برأيه

كل من يقول في التفسير برأيه لا يجوز له بحال من الأحوال أن يهمل تفسير القرآن للقرآن . ولا ما صح من التفسير عن رسول الله ﷺ وأصحابه . ولو أن مفسراً أهمل شيئاً من ذلك ولم ينظر فيه ويأخذ به . . . لعد من المفسرين بالرأى المذموم . لأن رأيه حينئذ يكون معارضاً لما هو أقوى منه وأحق بالقبول . ولتفصيل ذلك نقول :

(١) سورة البقرة - الآية ٢٨٢

(٢) علق الحافظ العراقي على هذا الحديث في ترجمته لأحاديث الإحياء لنعراى بقوله : رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه ج ١ ص ١٢١ من الإحياء ط : نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٣٥٦ هـ

إن المصادر التي يجب على المفسر أن يرجع إليها عند شرحه للقرآن حتى يكون تفسيره جائزاً ومقبولاً هي ما يلي :

أولاً : الرجوع إلى القرآن نفسه : وذلك بأن ينظر في القرآن نظرة فحوص مدقق ، ويجمع الآيات التي في موضوع واحد . ثم يقارن بعضها ببعضها الآخر ؛ فإن من الآيات ما أجمل في مكان وفسر في مكان آخر ، ومنها ما أوجز في موضع وبسط في موضع آخر . . . فيحمل المجمل على المفسر ، ويشرح ما جاء موجزاً بما جاء مسهباً مفصلاً . . . إلخ ، وهذا ما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن ، فإن عدل عن هذا وفسر برأيه فقد أخطأ ، وقال برأيه المذموم .

ثانياً : النقل عن الرسول ﷺ مع الاحتراز عن الضعيف والموضوع فإنه كثير . فإن وقع له تفسير صحيح عن رسول الله ﷺ فليس له أن يعدل عنه ويقول برأيه ؛ لأن النبي ﷺ مؤيد من ربه ، وموكول إليه أن يبين للناس ما نزل إليهم . فمن يترك ما صح عن النبي ﷺ في التفسير إلى رأيه فهو قائل بالرأى المذموم .

ثالثاً : الأخذ بما صح عن الصحابة في التفسير . ولا يغتر بكل ما ينسب لهم من ذلك ؛ لأن في التفسير كثيراً مما وضع على الصحابة كذباً واختلاقاً ، فإن وقع على قول صحيح لصحابي في التفسير فليس له أن يهجره ويقول برأيه ؛ لأنهم أعلم بكتاب الله ، وأدرى بأسباب التنزيل ؛ لما شاهدوه من القرائن والأحوال ، ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم

الصحيح ولا سيما علماءهم وكبرائهم .

ثم هل للمفسر أن يعدل عن أقوال التابعين في التفسير . أو لا بد له من الرجوع إلى أقوالهم ؟ خلاف سبق لنا أن عرضنا له فلا داعي لإعادته .

رابعاً : الأخذ بمطلق اللغة . لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين . ولكن على المفسر أن يختار من صرف الآية عن ظاهرها إلى معان خارجة محتملة يدل عليها القليل من كلام العرب . ولا توجد غالباً إلا في الشعر ونحوه ويكون المتبادر خلافاً : روى البيهقي في الشعب عن مالك رضي الله عنه - أنه قال : « لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا » .

خامساً : التفسير بالمتن من معنى الكلام . والمقتضب من قوة الشرع . وهذا هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس حيث قال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » والذي عناه على رضي الله عنه بقوله حين سئل : هل عندكم عن رسول الله ﷺ شيء بعد القرآن ؟ - « لا » . والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهم يؤتبه الله عز وجل رجلاً في القرآن . . . ومن هنا اختلف الصحابة في فهم بعض آيات القرآن . فأخذ كل بما وصل إليه عقله . وأداه إليه نظره .

الأمور التي يجب على المفسر أن يتجنبها في تفسيره

هناك أمور يجب على المفسر أن يتجنبها في تفسيره حتى لا يقع في الخطأ ويكون ممن قال القرآن برأيه الفاسد . وإليك هذه الأمور :

١ - التهجم على بيان مراد الله تعالى من كلامه مع الجهالة بقوانين اللغة ، وأصول الشريعة ، وبدون أن يحصل العلوم التي يجوز معها التفسير .

٢ - الخوض فيما استأثر الله بعلمه : وذلك كالمتشابه الذي لا يعلمه إلا الله ، فليس للمفسر أن يتهجم على الغيب بعد أن جعله الله تعالى سراً من أسرارهِ وحجة على عباده .

٣ - النسير في الهوى والاستحسان : فلا يفسر بهواه ، ولا يرجع باستحسانه .

٤ - التفسير المقرر للمذهب الفاسد : بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً فيحتال في التأويل حتى يصرفه إلى عقيدته . ويردّه إلى مذهبه بأي طريق أمكن . وإن كان غاية في البعد والغرابة .

٥ - التفسير مع القطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل ، وهذا منهي عنه شرعاً ، لقوله تعالى : « ... وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١) » .

(١) سورة البقرة - الآية ١٦٩

المنهج الذي يجب على المفسر أن ينهجه في تفسيره

على كل من يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينهج في تفسيره منهجاً يراعى فيه القواعد الآتية ، بحيث لا يحيد عنها ، ولا يخرج عن نطاقها ، وهذه القواعد هي ما يأتي :

١ - مطابقة التفسير للمفسر ، من غير نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعنى . ولا زيادة لا تليق بالغرض ولا تناسب المقام ، مع الاحتراز من أن يكون التفسير في زيغ عن المعنى ، وعدول عن المراد .

٢ - مراعاة المعنى الحقيقي والمعنى المجازي ، ففعل المراد المجازي فيحمل الكلام على الحقيقة أو العكس .

٣ - مراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام ، والمؤاخذة بين المفردات .

٤ - مراعاة التناسب بين الآيات : فبين وجه المناسبة ، ويربط بين السابق واللاحق من آيات القرآن ، حتى يوضح أن القرآن لا تفكك فيه ، وإنما هو آيات متناسبة يأخذ بعضها بحجز بعض .

٥ - ملاحظة أسباب النزول ؛ فكل آية نزلت على سبب ، فلا بد من ذكره بعد بيان السبب ، وقبل الدخول في شرح الآية .

٦ - بعد الفراغ من ذكر المناسبة وسبب النزول - يبدأ بما يتعلق

بالألفاظ المفردة : من اللغة ، والصرف ، والاشتقاق ، ثم يتكلم عليها بحسب التركيب ، فيبدأ بالإعراب ، ثم بما يتعلق بالمعاني ، ثم البيان ، ثم البديع ، ثم يبين المعنى المراد ، ثم يستنبط ما يمكن استنباطه من الآية في حدود القوانين الشرعية .

٧ - على المفسر أن يتجنب ادعاء التكرار في القرآن ما أمكن : نقل السيوطي عن بعض العلماء أنه قال : « مما يدفع توهم التكرار في عطف المترادفين نحو (لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ) (١) ، (صَلَّاتٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٍ) (٢) وأشباه ذلك ، أن يعتقد أن مجموع المترادفين يحصل معنى لا يوجد عند انفراد أحدهما ؛ فإن التركيب يحدث معنى زائداً . وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى فكذلك كثرة الألفاظ (٣) »

٨ - وعلى المفسر - أيضاً - أن يتجنب كل ما يعتبر من قبيل الحشو في التفسير : كالخوض في ذكر علل النحو ، ودلائل مسائل أصول الفقه ، ودلائل مسائل الفقه ، ودلائل مسائل أصول الدين ؛ فإن كل ذلك مقرر في تأليف هذه العلوم ، وإنما يؤخذ ذلك مسلماً في علم التفسير دون استدلال عليه .

٩ - وكذلك على المفسر أن يتجنب ذكر ما لا يصح من أسباب

التزول ، وأحاديث فضائل السور (التي وضعها أبو عصمة نوح ابن مريم) وكذلك القصص الموضوع . والأخبار الإسرائيلية . فإن هذا مما يذهب بحال القرآن . ويشغل الناس عن التدبر والاعتبار .

١٠ - على المفسر - بعد كل هذا - أن يكون يقظاً فظناً عليمًا بقانون الترجيح حتى إذا ما كانت الآية محتملة لأكثر من وجه يرجح ويختار (١) .

منشأ الخطأ في التفسير بالرأى

يرجع الخطأ في التفسير بالرأى - غالباً - إلى جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين ؛ فإن الكتب التي يذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً غير ممزوج بغيره كتفسير عبد الرزاق . وعبد بن حميد . وغيرهما لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين . بخلاف الكتب التي جذبت بعد ذلك فإن كثيراً منها - كتفسير المعتزلة والشيعة - مملوءة بأخطاء لا تغتفر . حملهم على ارتكابها نصرة المذهب والدفاع عن العقيدة .

أما هاتان الجهتان اللتان يرجع إليهما الخطأ في الغالب فهما ما يلي :
الجهة الأولى : أن يعتقد المفسر معنى من المعاني . ثم يريد أن يحمل ألفاظ القرآن على ذلك المعنى الذي يعتقده .

الجهة الأخرى : أن يفسر القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه

(١) انظر قانون الترجيح في الإنفاق ج ٢ ص ١٨٢ نقلاً عن البرهان للزركشي .

(١) سورة المدثر - الآية ٢٨

(٢) سورة البقرة - الآية ١٥٧

(٣) الإنفاق ج ٢ ص ١٨٥ - ١٨٦

من كان من الناطقين بلغة العرب ، وذلك بدون نظر إلى المتكلم بالقرآن ،
والمنزّل عليه ، والمخاطب به :

فالجهة الأولى مراعى فيها المعنى الذى يعتقده المفسر من غير نظر إلى
ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان .

والجهة الأخرى مراعى فيها مجرد اللفظ ، وما يجوز أن يريد به العربى
من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ، والمخاطب ، وسياق الكلام (١) .

التعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأى

أولاً : لا يعقل تعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأى المذموم ؛
لأن التفسير بالرأى المذموم ساقط من أول الأمر ، وخارج عن محيط
التفسير بمعناه الصحيح .

ثانياً : التفسير بالرأى المحمود هو الذى يعقل التعارض بينه وبين
التفسير المأثور . وهذا هو الذى نريد أن نتكلم فيه فنقول :
إن الصور العقلية التى يحصل فيها التعارض بين التفسير المأثور والتفسير
بالرأى المحمود هى :

١ - أن يكون التفسير العقلى قطعياً والمأثور قطعياً كذلك ، وهذه

صورة فرضية . لأنه لا يعقل تعارض بين قطعى وقطعى . ومن المحال أن
يتناقض الشرع والعقل .

٢ - أن يكون أحدهما قطعياً . والآخر ظنياً ، وفى هذه الصورة يقدم
القطعى على الظنى إذا تعذر الجمع . ولم يمكن التوفيق . أخذاً
بالأرجح . وعملاً بالأقوى .

٣ - أن يكون أحدهما ظنياً والآخر ظنياً كذلك . وفى هذه الصورة
إذا أمكن الجمع بين المأثور والعقلى وجب حمل النظم الكريم عليهما .
وإن تعذر الجمع بينهما قدم التفسير المأثور عن النبى ﷺ إذا ثبت من
طريق صحيح . وكذلك يقدم ما صح عن الصحابة . وأما ما يؤثر عن
التابعين فإن كان الراوى له معروفاً بالأخذ عن أهل الكتاب قدم التفسير
العقلى . وإن لم يعرف بالأخذ عن أهل الكتاب لجأنا إلى الترجيح : فإن
تأيد أحدهم بسمع أو استدلال رجحناه على الآخر . وإن اشتبهت
القرائن . وتعارضت الأدلة والشواهد توقفنا فى الأمر . وعلينا أن نؤمن
بمراد الله تعالى . ولا نهجم على تعيينه . وينزل ذلك منزلة المجمل قبل
تفصيله . والمتشدد قبل تعيينه .

(١) راجع تفصيل كل من الجهتين فى مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٠ - ٢٤

أقسام التفسير بالرأى

بيناً - فيما تقدم - موقف العلماء من جواز التفسير بالرأى . وقلنا : إن فريقاً منهم قال بالجواز . وفريقاً آخر قال بعدم الجواز . وسقنا أدلة الفريقين ، وانهينا إلى أن الخلاف لفظي لا حقيقي ، لأن الرأى - كما قلنا - قسمان : قسم جار على موافقة كلام العرب ومناحيهم فى القول . مع موافقة الكتاب والسنة . ومراعاة سائر شروط التفسير . وهذا القسم جائز لا شك فيه . وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأى . وقسم غير جارٍ على قوانين العربية . ولا موافق للأدلة الشرعية . ولا مسوف لشرائط التفسير . وهذا هو مورد النهى ومحط الذم ، وهو الذى يحمل عليه كلام المانعين للتفسير بالرأى . وحاصل ما تقدم : أن التفسير بالرأى قسمان : ممدوح جائز ومذموم غير جائز .

وقد بدأ التفسير بالرأى الجائز مبكراً لم يخرج عن قانون اللغة ، ولم يتخط حدود الشريعة . وظل محتفظاً بهذه السمة إلى أن قامت الفرق المختلفة . وظهرت المذاهب الدينية المتنوعة . ووجد من العلماء من يحاول نصرة مذهبه والدفاع عن عقيدته بكل وسيلة وحيلة . وكان القرآن هو هدفهم الأول الذى يقصدون إليه جميعاً . كل يبحث فى القرآن ليجد

فيه ما يقوى رأيه ويؤيد مذهبه ، وكل واحد ما يبحث عنه ولو بطريق إخضاع الآيات القرآنية لمذهبه ، والميل بها مع رأيه وهواه ، وتأويل ما يصادفه منها تأويلاً يجعلها غير منافية لمذهبه ولا متعارضة معه : ومن هنا بدأ التفسير بالرأى المذموم ، واستفحل الأمر إلى حد جعل القوم يتسعون فى حماية عقائدهم ، والترويج لمذاهبهم بما أخرجوه للناس من تفاسير حملوا فيها كلام الله على وفق أهوائهم ، ومقتضى نزعاتهم ونحلهم ! . . .

ولقد خلف لنا كل من أصحاب التفسير بالرأى المحمود ، وأصحاب التفسير بالرأى المذموم كتباً فى التفسير ، وإليك أهم هذه الكتب :

أهم كتب التفسير بالرأى المحمود

من المقطوع به : أن المكتبة الإسلامية احتفظت لنا بالكثير من كتب التفسير بالرأى المحمود ، وهأنذا أذكر بعضاً منها تيسر لى الاطلاع عليه ، ووقفت على منهجه فى التفسير .

ولا يفوتنى أن أنبه إلى أن هذه الكتب التى وقع عليها اختيارى يتجه كل منها إلى اتجاه معين ، وتغلب عليه ناحية خاصة من نواحي التفسير وألوانه : فمنها ما تغلب عليه الصناعة النحوية ، ومنها ما تغلب عليه النزعة الفلسفية والكلامية ، ومنها ما تظنى فيه الناحية القصصية الإسرائيلية ؛

ومنها غير ذلك ، ولكن الجميع يدخل - في جملته - تحت شيء واحد .
هو : (التفسير بالرأى الجائز) .
أما هذه الكتب فهي :

١ - مفاتيح الغيب : للفخر الرازى . المتوفى سنة ٦٠٦ هـ .
٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل : للقاضى البضاوى . المتوفى سنة ٦٩١ هـ .

٣ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل : لأبى البركات النسفى ، المتوفى سنة ٧٠١ هـ .

٤ - لباب التأويل في معاني التنزيل : لعلاء الدين الخازن ، المتوفى سنة ٧٤١ هـ .

٥ - البحر المحيط : لأبى حيان الأندلسى ، المتوفى سنة ٧٤٥ هـ .
٦ - غرائب القرآن ، ورغائب الفرقان : لنظام الدين النيسابورى - المتوفى سنة ٧٢٨ هـ (١) .

٧ - تفسير الجلالين : لجلال الدين المحلى المتوفى سنة ٧٩١ هـ ،
وجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ .

٨ - السراج المنير : للخطيب الشربى ، المتوفى سنة ٩٧٧ هـ .
٩ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : لأبى السعود

(١) لم يعرف تاريخ وفاته على التحقيق ، وما ذكر منقول عن كشف الظنون ، وكثيراً ما يخطئ في مثل هذا .

العمادى المتوفى سنة ٩٨٢ هـ .

١٠ - روح المعانى : لشهاب الدين الألوسى ، المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ .

أهم كتب التفسير بالرأى المذموم

ومن المقطوع به - أيضاً - أن المكتبة الإسلامية احتفظت لنا بالكثير من كتب التفسير بالرأى المذموم ، وهذه الكتب جرى التفسير فيها على هوى أصحابها ونزعاتهم المذهبية . فما من صاحب مذهب كتب في التفسير إلا نظر إليه من خلال عقيدته . وقد تعسف بعضهم في الفهم . ففسر النصوص القرآنية وأخضعها لتكون له لا عليه . حتى خرج بذلك خروخاً ذريعاً إلى القول في القرآن بالهوى والغرض .

وسأذكر بعض هذه الكتب مكثفياً من كل مذهب بكتابين . دون أن أخوض في الكشف عما فيها من انحرافات . تاركاً للقارئ الكريم أن يرجع هو إلى هذه التفاسير ليرى ما فيها من العجب العجيب واليك هذه الكتب :

(١) من تفاسير المعتزلة :

١ - تنزيه القرآن عن المطاعن : للقاضى عبد الجبار - المتوفى سنة ٤١٥ هـ .

٢-الكشاف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ

(ب) من تفاسير الشيعة الإمامية الاثني عشرية :

- ١-مجمع البيان لعلوم القرآن : لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي ، المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وهو أهم كتب الشيعة ، وأكثرها اعتدالاً .
- ٢-الصافي في تفسير القرآن الكريم : للملا محسن الكاشي المتوفى في أواخر القرن الحادي عشر الهجري ، ولم أقف على تحديد وقت وفاته .

(ج) من تفاسير الشيعة الزيدية :

- ١- فتح القدير : لمحمد بن الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ .
- ٢- تفسير عطية بن محمد النجراfi الزيدى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ - لم أقف عليه وقد ذكره صاحب الفهرست وقال : وقد قيل عنه : إنه تفسير جليل ، جمع فيه صاحبه علوم الزيدية ^(١) . (مع ملاحظة أن الزيدية أعدل فرق الشيعة على الإطلاق) .

(د) من تفاسير الخوارج الإباضية :

- ١-هميان الزاد إلى دار المعاد : لمحمد بن يوسف إطفيش المتوفى سنة

١٣٣٢ هـ

٢-تفسير هود بن محكم الهواري من علماء القرن الثالث الهجري . وهذا التفسير متداول بين الإباضية في المغرب . وقد اطلعت على بعض أجزائه الأربعة لدى الشيخ إبراهيم أطفيش - رحمه الله .

٣- التفسير الموضوعي

حقيقة التفسير الموضوعي :

نريد بالتفسير الموضوعي : تناول جانب واحد من جوانب القرآن الكريم بالدراسة والبحث . وغالباً ما تكون الدراسة لموضوع معين متناولة له من كل جوانبه . مستوعبة لكل ما فيه من جزئيات ربما لا يتاح تناولها في التفسير العام . وغالباً ما يجرى هذا اللون من التفسير على أيدي رجال برعوا في نواح معينة من العلوم . فاستهواهم حبيهم للدراسة . وشغفهم بالبحث - أن يتناولوا من موضوعات القرآن ما يتصل بالجانب العلمي الذي برعوا فيه :

فابن القيم - مثلاً - أفرد كتاباً من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن سماه : (التبيان في أقسام القرآن) .

وأبو عبيدة : أفرد كتاباً للكلام عن مجاز القرآن .

والراغب الأصفهاني : أفرد كتاباً في مفردات القرآن .

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٣ - ط : الرحمانية سنة ١٣٤٨ هـ

وأبو جعفر النحاس : أفرد كتاباً في الناسخ والمنسوخ من القرآن .
 وأبو الحسن الواحدى : أفرد كتاباً في أسباب نزول القرآن .
 وأبو بكر الجصاص : أفرد كتاباً في أحكام القرآن . . . وغير هؤلاء
 كثير من قصدوا إلى موضوع خاص في القرآن ، يجمعون ما تفرق منه
 ويفردونه بالدراسة والبحث .

٤ - التفسير الإشارى

حقيقة التفسير الإشارى :

التفسير الإشارى : هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف
 ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفيفة تظهر لأرباب السلوك ، ويمكن
 التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة .

ويرتكز التفسير الإشارى على رياضة روحية يأخذ بها الصوفى نفسه
 حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الإشارات
 القدسية ، وينهل على قلبه من «حجب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف
 السبحانية .

هذا ، ولا يرى الصوفى أن التفسير الإشارى هو كل ما تحتمله الآية
 من المعانى ، بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ، ويراد منها أولاً
 وقبل كل شيء ، ذلك هو المعنى الظاهر الذى ينساق إليه الذهن قبل غيره .

وقد اشترط العلماء لصحة المعنى الإشارى شرطين أساسيين :
 أولهما : أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب ، بحيث
 يجرى على المقاصد العربية .
 والآخر : أن يكون شاهد له نصاً أو ظاهراً فى محل آخر يشهد لصحته
 من غير معارض .

وإذا نحن ذهبنا نستعرض أقوال القوم فى معانى القرآن الإشارية على
 ضوء هذين الشرطين وجدنا الكثير منها يمكن أن يكون من قبيل التفسير
 الإشارى المقبول . وكثير منها - أيضاً - من قبيل التفسير الإشارى
 المرفوض ، وكبرى المشاكل أنها منسوبة إلى رجال من أهل العلم لهم
 مكانة علمية ودينية لدى جمهور المسلمين ! . . .
 وتوضيحاً لما تقدم نذكر مثلاً لكل من التفسير الإشارى المقبول ،
 والتفسير الإشارى المرفوض :

المثال الأول للمقبول : ما جاء فى تفسير قوله تعالى : «فَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ
 أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (١) « من قول سهل التستري « فلا تجعلوا لله أنداداً »
 أى أضداداً ، فأكبر الأضداد : النفس الأمارة بالسوء ، المتطلعة إلى
 حظوظها بغير هدى من الله » (٢) .

المثال الأول للمرفوض : ما جاء فى تفسير قوله تعالى «إن أول بيت

(١) سورة البقرة - الآية ٢٢

(٢) تفسير القرآن العظيم للتستري ص ١٤

وضع للناس» من قول سهل التستري - أيضاً - : «أول بيت وضع للناس بيت الله عز وجل بمكة ، هذا هو الظاهر ، وباطنها : الرسول . يؤمن به من أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس (١) » .

أهم كتب التفسير الإشاري

من العلماء من عنى في تفسيره بالتفسير الظاهر ، وتعرض للتفسير الإشاري بقدر ، كما فعل النيسابوري . والألوسي . ومنهم من غلبت عليه ناحية التفسير الإشاري . ومع ذلك فهو يتعرض - أحياناً - للتفسير الظاهر . كما فعل سهل التستري . ومنهم من وجه همه كله إلى التفسير الإشاري ولم يحم حول المعاني الظاهرة . كما فعل أبو عبد الرحمن السلمي . ونكتفي هنا بأن نذكر أهم الكتب التي وجه أصحابها فيها كل عنايتهم أوجليها نحو التفسير الإشاري . وإليك أهم هذه الكتب :

١- تفسير القرآن العظيم : لسهل التستري : المتوفى سنة ٢٨٣ هـ وقيل سنة ٢٧٣ هـ - يذكر أحياناً المعاني الظاهرة .

٢- حقائق التفسير : لأبي عبد الرحمن السلمي ، المتوفى سنة ٤١٢ هـ - لا يتعرض فيه للتفسير الظاهر .

٣- عرائس البيان في حقائق القرآن : لأبي محمد الشيرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ - لم يتعرض فيه للتفسير الظاهر .

٥- التفسير العلمي

حقيقة التفسير العلمي :

التفسير العلمي هو التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن ، ويجهتد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها .

وقد وقع هذا النوع من التفسير ، واتسع القول في احتواء القرآن كل العلوم ، ما كان منها وما يكون . فالقرآن في نظر أصحاب هذه الطريقة - يشمل - إلى جانب العلوم الدينية الاعتقادية والعملية - سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها . وتعدد ألوانها .

ويظهر لنا أن الإمام الغزالي - رحمه الله - كان - إلى عهده - أكثر من استوفى بيان هذا اللون من تفسير القرآن الكريم ، وأهم من أيده وعمل على ترويجه في الأوساط العلمية الإسلامية .

كذلك نجد العلامة جلال الدين السيوطي ينحو منحى الإمام الغزالي في القول بالتفسير العلمي . ويقرر ذلك بوضوح وتوسع في كتابه (الإتقان) وفي كتابه (الإكليل في استنباط التنزيل) مستنداً إلى قوله

تعالى : « مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » (١) وقوله « وَتَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ » (٢)

إنكار الشاطبي للتفسير العلمي :

ويظهر لنا - على حسب ما قرأنا - أن زعيم المعارضة للتفسير العلمي - قديماً - هو الفقيه الأصولي أبو إسحق الشاطبي . وقد قرر ذلك وأيده في كتابه (الموافقات) ورد استدلال السيوطي بما ذكرنا من آيات القرآن بحملها على ما يتعلق بالتكاليف والتعب . أو بحمل الكتاب - في الآية - على اللوح المحفوظ .

واعتقادي : أن الحق مع الشاطبي ؛ لأن ما ساقه من الأدلة لتصحیح مدعاه أدلة قوية لا يعترى بها الضعف . ولا يتطرق إليها الخلل . ويصحح الشاطبي رأيه فيقول : « إن السلف الصالح - من التابعين ومن يليهم - كانوا أعرف الناس بالقرآن وبعلمه . وما أودعه ، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى . . . ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة ، إلا أن ذلك لم يكن ؛ فدل على أنه غير موجود عندهم . وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا . نعم . تضمن علوماً من جنس علوم العرب .

(١) سورة الأنعام - الآية ٣٨

(٢) سورة النحل - الآية ٨٩ .

أو ما ينبنى على معهودها مما يتعجب منه أولو الأبواب . ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بإعلامه . والاستنارة بنوره . أمّا أن فيه ما ليس من ذلك فلا (١) . وهذا الذي قرره الشاطبي هو ما يجب أن نقول به . وإلا كان القرآن مصدراً لجوامع الطب . وضوابط الفلك . ونظريات الهندسة . وقوانين الكيمياء . وما إلى ذلك من العلوم المختلفة . وبذلك يقع الشك في عقيدة المسلمين نحو القرآن الكريم . وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه نظريات لاقرار لها ولا بقاء . فرب نظرية علمية قال بها عالم اليوم . ثم رجع عنها بعد زمن قليل أو كثير ؛ لأنه ظهر له خطأها . وكم بين نظريات العلم قديمه وحديثه من تناف وتضاد : فهل يعقل أن يكون القرآن محتملاً لجميع هذه النظريات والقواعد العلمية على ما بينها من تناف وتضاد ؟ وإذا كان هذا معقولاً فهل يعقل أن يصدق مسلم بالقرآن بعد هذا ، ويكون على يقين بأنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ .

ليعلم أصحاب هذه الفكرة أن القرآن الكريم غني عن أن يعتر بمثل هذا التكلف الذي يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنساني الاجتماعي في إصلاح الحياة ، ورياضة النفس ، والرجوع بها إلى الله ، وحسبهم ألا يكون في القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة ، وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جدّ ويجدّ من نظريات وقوانين علمية

(١) الموافقات ج ٢ ص ٧٩ - ٨٠ .

تقوم على أساس من الحق ، وتستند إلى أصل صحيح .
 . . وبعد فإذا كان التفسير العلمى قد لقي من قدامى العلماء معارضين
 ومؤيدين -- فإنه قد لقي - أيضاً - ولا يزال يلقى من محدثيهم معارضين
 ومؤيدين .

ولقد نجد من بين المؤيدين لهذه النزعة - بل على رأسهم - المرحوم
 الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه المسمى : (الجواهر فى تفسير القرآن
 الكريم) .

ولقد نجد فى الجانب الآخر كثيراً من المعارضين أمثال : الشيخ محمد
 مصطفى المراغى ، والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ أمين الخولى ، رحمهم
 الله رحمة واسعة .

الخاتمة

. . وبعد فلم يزل القرآن الكريم غصاً طرياً . ولم يزل التفسير بحراً
 لا ساحل له . ومن أى النواحي أتيت وجدته فيه الدرر الغوالى ، ومهما
 جدّ المفسرون وأجهدوا أنفسهم فى البحث عن حكمه وأسراره -- فلن
 يبلغوا غاية ، ولن يقفوا عند نهاية ، ولا يزال المشتغلون بالتفسير على
 اختلاف ميولهم ، وتعدد مشاربهم -- يثرون القرآن الكريم ؛ ليكشفوا عما
 حواه من علوم ، وما اشتمل عليه من هداية ، وستظل طائفة منهم اليوم
 وغداً . وإلى أن تقوم الساعة - يعملون فى حقل التفسير أملاً فى أن
 يتكشف لهم من خلال آياته جديد ، وسوف يصلون - بإذن الله - إلى
 الكشف عن جديد ، ولكنه - مهما كان عظمه وخطره - قطرة من مكنون
 علم الله القائل « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » ^(١)

وإذا كان التفسير فى الماضى قد تعددت مذاهبه ، وتنوعت مناهجه .
 واختلفت اتجاهاته ومقاصده -- فإنه فى حاضرتنا لم يخرج عن هذا المنهج ؛
 وإنما تناول كل ألوان التفسير : تناول التفسير بالرأى المحمود ، وتناول
 التفسير بالرأى المذموم ، وتناول التفسير الموضوعى ، وتناول التفسير
 الصوفى ، وتناول التفسير العلمى . . وعلى الجملة فالتفسير فى حاضرتنا

ما زال موصولاً بالتفسير في الماضي . ولا يكاد ينفك عنه إلا نادراً . وربما في الصورة فقط ؛ ذلك لأن الأولين بذلوا جهداً كبيراً في التفسير . ومهدوا الطريق أمام المشتغلين به . وتناولوا القرآن آية آية بالدراسة الواسعة المستفيضة . وأكد أقول : لا أرى المتأخرين يقولون إلا معاداً من القول مكروراً .

نعم هناك سمات بارزة للتفسير في عصرنا الحاضر لها أصلها في الماضي .

ولكنها برزت في حاضرنا بصورة تسترعى النظر :

هذه السمات هي :

١ - إبراز الجانب الاجتماعي في القرآن الكريم . ورائد هذا الاتجاه في التفسير هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . عليه رحمة الله .
٢ - إبراز الجانب العلمي في القرآن الكريم . ورائد هذا الاتجاه في التفسير هو الشيخ طنطاوي جوهرى . ومن بعده كثير انتموا لهذا الاتجاه . وألقوا فيه ما هو مقبول وما هو مرفوض .

٣ - إبراز الجانب الفكرى . وغالب ما كتب في ذلك شطحات فكرية . تشبع بها أصحابها . فحاولوا إحضار القرآن لها . ولكن هذه المحاولة برزت فاشلة ! . . وهناك إلى جوار ذلك محاولات لما يسمى (تفسير القرآن بالقرآن) للأخ الفاضل عبد الكريم الخطيب .

وهناك تفسير حديث يسمى (التفسير العصرى القديم) للأستاذ :

عبد الفتاح الإمام الدمشقى . مطبوع في ثلاثة مجلدات . وهناك تفسير ثان حديث يسمى (التفسير الحديث) للأستاذ / محمد عزة دروزة ، وقد رتبته على حسب ترتيب نزول القرآن - مطبوع في اثني عشر جزءاً .

وهناك تفسير ثالث حديث يسمى (بيان المعاني) للسيد «عبد القادماً حويش آل غازى العانى» ، وقد رتبته - أيضاً - على حسب ترتيب نزول القرآن - مطبوع في ستة مجلدات .

وهذه المحاولات والمؤلفات تعتبر من أهم ما كتب في التفسير ، وهى بحاجة إلى دراسة شاملة مستوعبة حتى نستطيع الحكم لها أو عليها . ولعل ضيق المجال يشفع لى فى أنى اختصرت البحث ، وضيق دائرة الكلام عن علم التفسير ، ولم أتناول بعض جوانبه التى أشرت لها بدراسة مستفيضة ، وحسبى أنى ألقى الضوء على أجل علم عرفته البشرية : كيف بدأ ؟ وكيف تطور ؟ وإلى أى شىء صار ؟

والله - تعالى - أسأل أن يلهمنا السداد ، وأن يأخذ بيدنا إلى طريق الخير والرشاد ؛ إنه بالإجابة جدير ، وعلى كل شىء قدير ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، ،

دكتور محمد حسين الذهبى